حول مستقبل الأزهر :

الاستقرار أولا

للأستاذ كامل السيد شاهين

إنا وما نبكتم من أمرنا كالثور إذ قرب النافخ
أو كالتى يحسبها أهلها عذراء بكرا ، وهى فى التاسع !
كنا نرفيها ، فقـد خرقت واتسع الخرق على الراقع !

إذا كانت الهزات الاجتماعية ، والحروب الكاسحة ، معوقة للتقدم العلمى ، حائلة بين ركب الحضارة وبين الخطو للأمام ، فإن الزلازل التى بلى بهـا الأزهر منذ ست عشرة سنة ، جديرة أن تهزه هزا عنيفا يكاد يفقده سمته العلمية ، ويشكك الناس فى رسالته ، حتى ليوشك أن يبقى اسما فارغا تحته واقع من الفوضى العمياء ، والتهويش المخرب ، والجهل العميق ، والجعجعة الـكذوب !

وإذا كان الأزهر فى فتائه وإخلاصه للعلم ، واستفراغ جهود أبنائه فى الدرس ، وتوفرهم على البحث — لم يستطع أن يساير الركب إلا لاهثا منهوكا ، فأحر به وقد انصرف بنوه رؤساء وأساتذة وطلابا إلى الشغب والإضطراب ، وتنور الحركات السياسية المشئومة ، والجرى معها كما تهوى الأغراض والمنافع ، وإرسال الخطب تغريرا بصغار الطلاب ومغفليهم ، أحر به وقد انصرف بنوه إلى ذلك كله أن يكبوا كبوا لا يسرع معه إلى النهض ، وأن يكون بعيدة من ركب أخيه منشط الجاد ، لايدركه إلا بالمعجزة تخرق العادة ، وتأتى بما وراء الظنون!

• • •

امتازت السنوات التى قضاها الشيخ الأحمدى شيخا للأزهر (بين سنة ٢٩ وسنة ٣٤) بأنهـا كانت مخلصة للعلم والدرس والنظام ، ولقد أفاد الطلاب والأساتذة على السواء من هـذه النهضة المباركة ، ولا يزال من أصابوا حظهم من الدراسة فى هذه الفترة، على قدر من الثقافة الأزهرية الوسطة التى لا تحوج إلا إلى قدر يسير من المعاودة والمراجعة ، ليستوى صاحبها عالمـا ملما متهيئا للافادة

ولئن كان للشيخ الأحمدى قد أثم أكبر الإثم بمـا جارى من السيـاسة المشئوم باشا فى تلك الفـــترة ، فأرهب الطلاب والأساتذة ، واتخـذ بعض العلمـاء عيونا على بعض ، وعاقب بالظنة ، وبطش البطشة الـكبرى بمن تحوم حولهم شبهة ، وكان غليظ القلب فى مصادرة الأرزاق ، وتشريد الأسر ، حتى أصبح الأزهر كله فرقا يموج بالدس والنفاق ، وصار أساتذته فى ذلة وانضاع من قلة الرواتب وسوء الحال . . لئن أثم الشيخ الأحمدى هذا الإثم كله لقـد ازدهرت الناحية التعليمية فى عهده كل مزدهر ، وآتى الاستقرار ثمارا لا تزال حلاوتها ملء الأفواه إلى يوم الناس هذا

وأقبل عهد الشيخ المراغى فـكان فيه الخير والشر . كان خيره على الجيوب والبطون ، وكان خيره على الـكرامة الأزهرية والسمعة الخارجية الداوية ، وشره كان على العلم والاستقرار ، وكان على الإنتاج والتحصيل والإعداد

حينما ثار العلماء والطلاب بالشيخ الأحمدى ، وهتفوا بالشيخ المراغى ، كانت دعوامم الإصلاح والنهوض . فإن كان الإصلاح الذى يريدون إصلاح الرواتب ، وإصلاح الجو الأزهرى ، وإصلاح سمعة الأزهر ، فقد تحقق لهم من ذلك بالشيخ المراغى كثير مما يبغون . وإن كان الإصلاح الذى يرجون إصلاحا علميا ، ونهضة واثبة لتحقيق رسالة الأزهر ، فقـد ساروا فى ذلك خطوات فسيحات ، ولـكن . . إلى الوراء !

جاء الشيخ المراغى وفى صدره حب طاغ للأزهريين بعامة ، وللطلاب بخاصة . وانتثرت الثمرة الأولى فى عامه الأول ، فلم تتم المقررات، ليس فى الـكليات وحدها، بل فى المعاهد كذلك ، ونادى منادون أن تريث المشيخة بالامتحان حتى يتم الطلاب دروسهم شرحا . وكان حل لهذا المشكل ، ولـكن على حساب العلم ؛ فأوحى إلى وضاع الامتحان أن يكون فى المقرر ولافى المقرر ، فـكان هذا بدء الانثلام

وبعد هذا بدأت إضرابات واضطرابات كان يعالجها الشيخ بكثير من الرفق ، وفق هوى الطلاب . فاستشعر الطلاب أنهم

جانب ذو بال فى تسيير دفة الأمور ، فعزلوا وولوا ، وكان ممن عزل بالهتاف والوقيعة ، وممالأة الطلبة ، الشيخ الضرغامى شيخ معهد أسيوط ، والشيخ السرتى شيخ معهد طنطا ، وأمر أمر الطلاب إلى حد كبير حتى كانت المشيخة تتدور اتجاهاتهم ورغباتهم لتسير كما يطوع هواهم

وفى الحق أن الشيخ المراغى كسب قلوب الطلاب ، واستطاع أن يكيد بهم لخصومه كيدا بليغا . ولقد تحلق الطلاب يوما فى كلية الشريعة حول شيخ كبير وأهانوه إهانة مستقذرة وكادوا يفتكون به لولا أن ذادهم أخو الشيخ المراغى وابنه عنه . ولقد كان هيج الطلاب وسفلتهم درعا حصينة وقت الشيخ تلك النقدات اللواذع التى وجهها إليه بعض كبار الشيوخ فى إحدى الكليات ، حتى لقد تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، وانفتحت للاعتذار آنذاك أبواب وأبواب . ولقد كتبت « الرسالة » عامئذ تصور هـذه الحال تصويرا لا يزال — على بعد العهـد — يشيع فى النفس أبلغ معانى الحسرة والسخرية

ومهما يكن من أمر هذه الحركات والإضرابات ، فقد كان الطلاب فيما بينهم وبين أنفسهم يعدون ذلك شذوذا وخروجا عن الحد . وكانوا يتلاومون فيما بينهم ، ويتساررون أن هذا أمر خطير غير مشروع ، ويرجون أن يثوبوا إلى النظام بعد حين

وقد كان حملهم على الطريق يسيرا ، لو أن أولى الأمر نكروهم ، وتجهموا لهم ، وتعهدوهم بالنصح وضبط الامتحانات وعدم الترخص فى شئ من أمرها . . ولـكن الأحداث جرت بغير هـذا ، بل مدت للطلاب مدا ، وساقتهم إلى الاعتقاد بأن الإضراب والتهريج ، واختلاق أسباب الشغب ، كلها حقوق مشروعة تباركها المشيخة ، وتدفع إليها

ذلك بأن حكومة الوفد سقطت عام ١٩٣٨ ، فنفخ فى الصور ، وأوذن الأزهريون أن يهبوا لمحاربة مرشحى الوفد ، وتأييد خصومه ، وباركت المشيخة هذه الحركة الدنيئة ، ونشطت فيها نشاطا غير كريم ، وأرسلت السماسرة يوزعون المال لشراء الذمم ، وأوقفت الدراسة أكثر من أربعين يوما حتى قامت الحـكومة الجديدة ببرلمانها الجديد

لقد استـــغل فى الأزهريين حبهم لأستاذهم الأكبر الذى لا يناصر الوفد ، واستغل فيهم فقرهم وحاجتهم إلى المال ، ولـكن نسيت المشيخة أن هذه حركات سياسية دنسة ، واشتراك الطلاب فيها على هذا النحو إزراء بالأزهر ، وإسقاط له كجامعة تخدم الجميع ، ولها حق الاحترام على الجميع ، ولا ينبغى أن تتخذ لونا سياسيا مهما زها وخلب بريقه

نسيت المشيخة أن الطلاب لهم قلوب وآراء واتجاهات ، وأن شراء ذممهم بالمال تربية سافلة ، وسنة قذرة يجب أن تتوقاها مشيخة كريمة جهد التوقى

نسيت المشيخة أنها بذلك تعلم رجال الأحزاب احتقار الأزهر وآله الذين يسخرون بالدراهم ، ويسيرون بالرشا . . ولقد ذهب الطلاب إلى الدكتور ماهر ذات يوم يطالبون إليه أمرا من أمور الأزهر ، ويذكرونه فضلهم فى خدمة الحـكومة القائمة . فأجابهم : أما ما تذكرون من الفضل . . فلا . . فقد قبضتم الثمن !

هذا العمل كان جديرا أن يصدر من شيـخ غير المراغى العظيم ، ولـكن الشيخ غفر الله له — باع الأزهر فى سبيل الـكيد والمغايظة ، ولم يعبأ بانتقاء السلاح الذى ينبغى له استعماله

إن من الإجرام أن يسير الأزهر فى ركاب حزب من الأحزاب . وإن من الإجرام أن يحاول حزب من الأحزاب أن يلون الأزهر بلونه . يجب أن تتوقى الأحزاب جرجرة الأزهر واستغلاله فى مهاتراتها ومناوراتها ومكايدها . وإذا كان لا بد للأزهر أن يتحزب ، فليتحزب تحزبا إسلاميا يتفق مع دراسته ورسالته

لقد كان من الآثار الباقية لهذه الحركة المشئومة أن آمن الطلاب والأساتذة من يومئذ بأن الاضطراب أمر مشروع تسنه المشيخة وتباركه وتكافىء عليه وتدعو له ، وأن الامتحان مأمون الخطر ما دام فى المقرر ، وما دام الأساتذة فى أيدى التلاميذ ، يقرءون ما أراد الطلبة لهم أن يقرءوا ، وينتهون إلى حيثما يريد الطلبة بهم أن ينتهوا . . وتخرج على هذا الوضع متخرجون هم فى الجهالة ما هم !

وانتهى عهد الشيخ المراغى وقد خلف للأزهر فسادا شاملا وسفنا من أسوإ ما ضرب للمتعلمين فى أى معهد من معاهد التعليم

فإذا كان للشيخ مناح محمودة مشهودة من خلقه ووفاته ،

ومن عزته وإبائه ، ومن علمه وجلالته ، ومن حفاظه وكرامته . فليس هذا عليه بمنكور ، ولكنا لسنا بصدد التحدث عن ذلك؛ وإنما نحن بصدد الحديث في أمر الفوضى والاستقرار ، فليطرد فيه الكلام حسب

• • •

من بعده تولى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقد جاء وصدره تتزاحم فيه الآمال . وأسرى إلى الأزهريين أنه راغب أن يدفعهم إلى الأمام بكلتا يديه . . ولكن متقلة من انحلال خلق ، وتكتل إقليمي ، ونزوع للفوضى ، مما يحتاج في علاجه إلى صلابة وجه ، وشدة جسم . . أمر يتكاد رجلا موفور الحياء، جم التواضع، بالغ الرقة ، كالشيخ مصطفى أن ينجح في علاجه وتصفيته . إذن فقد مضت الأمور آخذة أخذها القديم ، ولم يتأذن الله للشيخ مصطفى أن يغير من أمر الأزهر شيئا ، ولم يكن الشيخ بطبيعته رجل هذا التغيير . . لقد مات الشيخ مصطفى مغيظا حزينا متأثرا بنداءات خشنة مجانبة الذوق والأدب، سكت سمعه في حرم الأزهر . . لقد قتل الشيخ مصطفى مظلوما . . ظلمه النقراشي باشا إذ ولاه — على رغمه — مشيخة الأزهر !

• • •

وما كاد الشيخ مأمون يقتعد كرسي المشيخة ، حتى قرب وباعد ، وسر وساء ، ولكن في مدى معقول غير متطرف ، وسار في الأزهر سيرة تمد مزيجا من (الدودشة) والدهاء . والحق أنه عزم ليردن الطلاب إلى الدرس والنظام وليقيمنهم على الطريق ، وحاول ذلك جاهدا ، وأذن في المفتشين ليرابطن كل مفتش في معهد لا يريمه شهرا ، ثم ينتقل إلى آخر ويخلفه مفتش آخر ، وكانت سيرة محمودة لو كتب لها النجاح . . ولكن ثقل النظام على الطلاب ، وبرم الأساتذة بالدرس المستقر ، فتحسسوا الفرص — وما أكثرها — ورجعوا لما اعتادوه من الفوضى والشغب . وحاول الشيخ أن يعالج هذا الاضطراب بضبط الامتحان ؛ ولكن الطلاب قد دخل في روعهم — من قبل — أن النجاح حق لهم ، وأن الغش حل ، بل يدافعون عنه بالمراوى والمدى والقدارات . . وفطنها الطلاب ، وذخلوا بالكتب ، وزادوا عن حقهم ما أطاقوا ، وكانت حوادث ، وظهر من شيوخ المعاهد من يحمي الغش ويدافع عنه ويواطئ الطلاب عليه ، وظهر من الأساتذة المراقبين من يدير ظهره ليراقب المشرفين حتى إذا بدا منهم أحد اتجه إلى الطلاب يرجوهم إخفاء ما استعان . غير أن بعض المشرفين آثر الأمانة في معهد قنا ، وصدق المشيخة ما هنالك ، فألغت الامتحان ، وكانت هذه خطوة جريئة مشكورة

ولكن الشيخ أدركه الهرم ، واضطربت أعصابه ، وبقي مع ذلك يصرف شؤون الأزهر ، ويقوم عليها مصبحا ممسيا ، فخرجت الأمور ممتلة مختلة ، ولم تجن المشيخة ثمار الحزم ، وعاد الطلاب إلى الفوضى والاضطراب على أشنع وجه وأبشع صورة

ومما زاد النقمة على الشيخ أنه شايع السياسة ، واضطهد الإخوان المسلمين حين كانت السياسة تضطهدهم ، وكان جديرا بمشيخة الأزهر أن ترفع يدها فلا تحارب قوما يؤدون رسالة هي لباب رسالة الأزهر ومخها . وأيا ما كان فقد أسف الشيخ شر إسفاف بجريه في تيار السياسة التي يجب أن يباعد بين الأزهر وبين رذائلها جهد المباعدة

وما كاد الشيخ عبد المجيد سليم يتولى المشيخة حتى أعلن أن له خططا منهجية يريد الأخذ بها ، ولكنه فوجئ بمطالب ، ونوهض بمصاعب، ردته عما كان يولي وجهه شطره من إصلاح . ثم أدركه الضعف فدخل مجلس الأزهر عنصر سياسي يتكلم باسم الحكومة ، ويقدم طلبات المشايعين لها ، ويتعصب لهم ويحمل المجلس على احتظائهم ؛ لأن في رفض طلبه إهانة للحكومة واستخفافا بها ، والنار والدمار للمجلس وللأزهر كله، إذا لم تسمع كلمة الحكومة ، ولم يستجب لندائها

وقرب على هذا الأساس ناس ، وبوعد ناس . وعاد شيخ الأزهر بعد مرضته ليلتقي باليدين وبالجران لهؤلاء الذين يتكلمون باسم الحكومة ، بلا مخالفة ولا اعتراض، لأن في المخالفة الشر كله

ولقد ضخم الوهم من أمر العنصر الطارئ ما ضخم حتى

صارت إشارته حكما، والاستجابة له فنا، وحتى أصبح المجلس بوقا ينفخ فيه واحد فتخرج منه أصوات كثيرة عدد أعضاء المجلس الموقر، كلها منسجمة مؤتلفة، لاشذوذ فيها - بحمد الله - ولا نشوز

وإذا كنا نستنكر من الشيخ المراغى أن يجيش الأزهر عام ١٩٣٨ لمجاراة الوفد، فإننا نستنكر على هذا العهد أن يطامن رأسه كذلك للرغبات الحزبية أيا كان مصدرها

وإذا كنا نعز الأزهر عن أن يسير فى ركاب محمد محمود والنقراشى وعبد الهادى، فإننا نعز الأزهر كذلك عن أن يسير فى ركاب مصطفى النحاس

وإذا كان الهتافة فى عهد السعديين مسلطين على رقاب الأزهريين، وكان الهتافة فى عهد الوفديين مسلطين على رقاب الأزهريين، فإن ذوى الكفاءات جديرون أن يعفوا أنفسهم من الجهد والعمل والجد، وأن يتربصوا بالزعماء فى دورهم وفى أفواه الطرق وأعراض السرادقات هاتفين مصفقين، أولا، فليتخذوا غير الأزهر مكانا يحترم العلم، ولا يضعف أمام الحزبية كما قال الدكتور محمد يوسف موسى

على أن الحكومة ما تفتأ تنادى بتلطيف حدة الحزبية، فيعلن وزير فيها أنه وزير للعلم لا للسياسة، ويصرح آخر بأنه يربأ بنفسه أن يكون عضوا فى حكومة لا تحترم الكفاءات.. فهل سمع الأزهر.. وهل وعى؟

يجب أن نعالج الأزهر أولا بالاستقرار، ودعم الاستقرار لا يكون إلا بالقضاء على الجرثومة الخبيثة، جرثومة الحزبية، ثم يطالب منه أن يؤدى رسالته. فأما وهو على هذا النحو، فأمر من يبغون منه الخير، أمر من يطالب من مريض المفاصل أن يسير وثبا، وهو فى كل لحظة يكب لوجهه كبا!

هذا ما رأينا من حال الأزهر، صورناه كما علمناه غير متجنين على أحد، ولا محابين أحدا. ونحن نعلم أن ذلك سترم له أنوف، وتوغر منه صدور، ولكنا آثرنا أن نضع الأمور فى نصابها، ليعلم امرؤ أن التاريخ غير راحم، وليرى أين يضع نفسه

كامل السيد شاهين
المدرس بمعهد القاهرة

الشر الطريف

للأستاذ ثروت أباظة

هى الصكة التى إن أخذت لم تذر، وإن محت لم تدع لصاحب العقل عقلا، أو لصاحب الفؤاد فؤادا، وهى لا تدع لذى الحياة حياة، إذ تنحط أول ماتنحط فيفقد الإنسان قوامه وتطير نفسه بددا، حتى إذا راجعت اليد التى أنزلتها رجع الإنسان إلى بعض الرشد منه فيبين له أن الله قد أقام الرجل رجلا حتى يملك زمام أموره، يسيرها فتسير، ويصرفها فتنصرف، فإذا استقام هذا التفكير وجرى فى سننه أصبح الرشد الآئب أكبر من الرشد الهارب، واتكأ المصدوع على سنة الله فى عباده فيرتأب الصدع أو يكاد، وتستقيم النفس بعد التواء. وبعد ففى كل شر خير، وخير معرفة الصاحب خالص الصحبة، من العدو مضمر البغض، خبر قديم يلازم كل شر ولا جديد فيه. وقديم كذلك أن أقرب الناس إليك قد يكون أشدهم بغضا لك. فهو يخفى بغضه حتى تصيب الصكة وينزل البلاء على صاحبه، فيزاحم ببغضه هذا البلاء ويستبق إلى إنزال الشر كأنه جزء منه، ينزله فلا يملك المبتلى إلا أن يصرخ « حتى أنت! » فإذا الصرخة فى نفس العدو فرحة؟ فهو موغل فى شره. حتى إذا تبين له أن كيده مردود، وأن الله قد أقام الرجل رجلا حتى يملك زمام أموره، يسيرها فتسير، ويصرفها فتنصرف.. بين ذلك فإذا صاحب الشر مسترجع شره، يضعه فى نفسه نارا تحترق ولا تحرق غيره! فياله من مسكين! هذا هو طريف الشر إذن.. آدمى ذو عقل وصاحب قلب يختزن فى نفسه النار وتحرق قلبه وهو قلبه، ويملك عقله، ولا يملك عقله أن يبعد عنه النار، ويمحقها بيديه!! ترى أى سبيل يسلك حين تنفرج الأزمة وتنفك العقدة، أهو راجع إلى ما كان يحاول إظهاره من ود؟ أم هو مستقيم مع الشر الذى زاحم فيه وبه؟ أما صاحب البلاء.. أما هو فما مصيره مع هذه الشرور التى كان يظنها خيرا؟ أهو مصدق نفاقهم الذى